تجليات زخارف الخط العربي
آشكاله وفنونه وقيمه

مصطفى الصوفي*

. عندما اخترع الإ نسان صورة الحرف ولدت الحضارة .
. وعندما انطلق الخطّ العربي في الآفاق تغلب على خطوط الأمم وقضى عليها أينما حل ..(تونبي)
. الخطّ والزخرفة العربية الإسلامية ارث حضاري كبير ومعجزة بيانية للعرب جسّدوا فيها عقائدهم وفكرهم وإبداعاتهم الرائعة.
اعتمد الخطّ بالأساس على طريقة مهمة جداً هي إدهاش العين، وامتاع منطقة الذوق السليم والارتقاء بها إلى مستويات من الروحانيّة الرفيعة وذلك من خلال قوة النص وروعة الهندسة الفنية للحروف.

الفنون الشعبية والخط العربي يعدّ من أهمّ الفنون الإسلاميّة الراقية التي نقلها وطوّرها وصقلها المسلمون عن العرب الأقدمين، وقد عرف الخطّ من قبل النبوة واستعملوه في كتابة المعلقات والرسائل وغيرها، وحمل أسماء وصفات عديدة حسب الأقاليم والبلاد التي نشأ فيها، فكان (الخطّ الحيري والأنباري والحجازي والثمودي والصفوي واللحياني والنبطي) اختفى معظمها وبطل استعمالها وبقي المشهور والشائع من الخطوط العربية خطّان هما النبطي وتفريعاته والخط الكوفي وتفريعاته، وإليهما تعود جميع أشكال الخطوط المعروفة اليوم .

فالخطّ الكوفي هو شكل متطور عن الخطّ (الحيري) والكوفة والحيرة مدينتان تقعان جنوب غرب العراق، كانت الحيرة موجودة قبل الفتح الإسلامي بنى بجانبها المسلمون مدينة الكوفة، وتنسب إليها تسمية (الخط الكوفي) الذي أطلقه عليه أبو حيان التوحيدي في القرن الرابع الهجري، وقد اكتسب الخطّ الكوفي على مرّ الزمان هالة عظيمة من التقديس والإجلال والتقدير فهو أفضل الخطوط العربية وأجملها على الإطلاق.

لذلك كتب القرآن الكريم بالخطّ الكوفي واستخدمه النّسّاخون في كتابة المخطوطات والتزيين والتجميل، واهتمّ الكتّاب بتجويده وتحسينه حتى بلغت أنواعه اثني عشر نوعًا كما ذكرها التوحيدي.

اشتهر من تفريعاته خطّ الثلث بقوّته وشموخه الذي يناسب النصّ القويّ الشامخ، فخطّت به معظم اللوحات القرآنيّة، وخطّ التعليق يناسب الموضوعات الشعرية، والخطّ الديواني بما فيه من أبّهة وفخامة يصلح لكتابة ما هو موجّه إلى الشخصيات المرموقة، والنسخ والرقع يصلحان للمكاتبات اليوميّة السريعة وهكذا يستطيع الخطّاط الحاذق أن يستبدل أماكن الخطوط تجاه موضوعاتها تبعًا لذوقه الخاص.

وقد ابتدع العقل العربي الحي صورًا متنوّعة وأشكالًا متعدّدة تليق بمقام هذا الحرف العربي ومكانته الروحية والصوريّة، فاستخدمه المهندسون العرب في تجميل جميع المنشآت العمرانيّة والدينيّة كالمساجد والمآذن والقباب والأعمدة والأبواب والقصور وزخرفة المصاحف، وتزيين الكتب والملابس والصناعات اليدويّة وغيرها.

وأصبح الحرف العربي بأشكاله الجميلة ينبض بالحياة، ويخفق بالمعاني السامية في جميع مظاهر الحياة العربيّة وتتشكّل صيغه الهندسية بمئات الصور في كلّ منها يعطي دلالات جديدة حتّى أصبحت ضربًا من المعجزات، واستخدم الفنانون العرب التجريد في الزخرفة الخطيّة التي حلّت محلّ التصوير التوريق كورق العنب والأغصان والأزهار والصنوبريات،

* كاتب سوري مقيم في الاردن

ورموز أشكال الحيوانات، فتفتحت بهذا أمام العقلية العربية آفاقًا واسعة من الإبداع والابتكار بلا حدود.

كانت انطلاقة الحرف العربيّ الكبرى في مجال الزخرفة خلال العصر الأموي عندما بدأ انتشار العمران وبناء مسجد قبّة الصخرة والجامع الأموي، فشجّع الخلفاء الزخرفة والتزيين ونشط في عهدهم فنّ التشكيل كالحفر على المرمر والفسيفساء وتزويق المصاحف وجلودها، وزخرفة الأبنية والجدران وأردية الخلفاء والأمراء، وبالغ الفنانون والكتّاب فيها حتّى وصلت أوجها من العقلانية والدقّة والقياس حاملة أرقى مفاهيم الضخامة واللطافة ومعاني الجمال والروعة، وعكست في نفوس الناس حبّ الواقع والتعلّق بالطبيعة واحترام النظام وإيثار الوضوح والبيان، معبّرة عن رقي النفس العربيّة، وعلوّها وتحليقها وسموّها ونزوعها إلى الكمال، فأبرزت التشكيلات المتنوّعة مفاتن العناصر الهندسيّة وأشكال الحيوانات والنباتات حتى قال عنها (غاستون ميجون) في كتابه الفن الإسلامي: "لم تأت أمة من الأمم في فنونها ما يضاهي العبقرية التي تجلّت في الفن الزخرفي الإسلامي".

وهكذا كان الخطّ العربيّ بحروفه الجميلة من أهمّ العناصر الزخرفيّة التي استعملها الفنان المسلم في موضوعاته نظرًا لما حمله من خصائص تعبّر عن قيم جماليّة وفكريّة جعلته متميّزا عن أيّ خطّ آخر، وتحوّل الخطّ العربي إلى فن تشكيلي بكلّ ما يحمله من معان وصور، فساعد الفنان على تصميم موضوعاته بشكل يقارب الكمال والمطلق كما في المفهوم الأفلاطوني الذي يعبّر عن خطوط منحنية أومدوّرة مرسومة بالمساطر والأقلام والبراكير. وقد دلّت الصور الزخرفيّة العربيّة على ثراء الحسّ الفنّي ورهافته وشفافيّته كما فعل بفنّي الشعر والموسيقى.

استخدمت الخطوط العربية الجميلة الكوفية والثلثية لكتابة الآيات القرآنيّة على محاريب المساجد وواجهات الجدران والقباب والمآذن بأشكال

لوحة زخرفية بالحرف العربي (فلسطين يا أرض البلاد) على شكل أرابيسك دائري

زخرفيّة جسّدت صور الإبداع الإسلامي أمام العيان وشهدت على مدى الدّهر على إبداعات الشخصيّة العربيّة وإنجازاتها الهندسيّة وتصميماتها ومقرنصاتها التي تدلّ على ثمرة ابتكارات الذهنية العربية الإسلامية .

يقول(روبير غرينا) : "لقد أصبحت الكتابة العربيّة تخفُق فيها الحياة وتصبح أكثر طراوة تركض في سطورها المتساوقة أو تتشكل في قوالبها الهندسية" ممّا مكّن الخطّ الكوفيّ من أن يتّخذ ألف شكل وشكل وأن يعطي دلالات جديدة لأساليب عديدة وصلت إلى ضروب من المستحيل وأصبحت عمليّة تأمّلية أو تربية قريبة من العبادة.

وتميّز في الخطّ الكوفيّ نوعان مهمان في الكتابة الزخرفية هما :

❖الخطّ الكوفيّ المورّق بأنواعه وله أصلان هما (المقوّر) الذي تكثر فيه التدويرات و(المبسوط) أو اليابس الذي يتميز باستقامة حروفه وزواياه الحادة، وكثرة أنواعه تدل على انتشاره في الأقاليم الإسلاميّة، وحيويته وتطوره حتى الآن .

❖ والخطّ المدني بأسمائه المتعدّدة وخاصّة (الثلث) والثلث الجليّ المتشابك التركيب المتداخل الحروف على أرضية الزخارف النباتية ذات الخطوط الدقيقة.

وبهذه الخطوط كتبت أمّات المصاحف التي بعثها الخليفة عثمان بن عفان إلى سائر الأقطار الإسلامية.

❖لوحة الرقش الزخرفية : وهي خطوط وزخارف هندسيّة قمّة في الابتكار والإبداع الفنّي الزخرفي تتمّ في عمليّة مزج وتداخل فائقة الدقة للخطوط الهندسية والعناصر النباتيّة والزهريّة الأخرى. ويعطي الخطّ الهندسي فيها إحساساً بالاستقرار والثبات والسكون لأنّه يعوّد النظر ويجذبه إلى عمق المساحات النفسيّة للشكل دون نهاية في عملية دوران وتكرار ساحر ومدهش سماها المستشرقون (الأرابيسك الدوّار) وهي من خصائص الفنّ الزخرفي الإسلاميّ في محاكاة الطبيعة وتصوير المحال والاستطراد. فالرقش يعالج الخطوط بحيث تصبح لوحة تصعب قراءتها دلالة على المهارة الفائقة للمبتكر في إبداع هذا الشكل الصعب.

ويقوم شكل الرقش على ظاهرة التكرار المثير بعيدًا عن الملل والسأم ويرمز إلى معان صوفيّة عميقة ورغبات نفسيّة فسّرها بعضهم بأنها محاولة للسعي إلى الخالق تعالى في علاه والذي منه وإليه تنتهي الأسباب والمسببات. فهي تتميز بالسرمديّة بغير نهاية ولابداية فقال عنها (مارسيه) في كتابة الفن الإسلامي: "إن وحدة الرقشة الزخرفية بغير بداية ولانهاية استوحت قواعدها من الرياضيات في عملية تكرار سرمدية للموضوع تعبر عن الرغبة في حلّ معادلة اللاّنهاية".

أما الدكتور زكي محمد حسن فقد فسّر ظاهرة التكرار في الزخرفة العربيّة بموقف(كراهية الفراغ) وفسّرته دائرة المعارف الإسلامية بأرجاعه إلى مبدأ (الترابط اللانهائي).

ونلاحظ في عهد الإسلام الأول أنّه توافرت للخطّ العربي إمكانات تطوّره وتنوّعه ونموّه بدءًا من محاولات نقط القرآن ثمّ تشكيله بصور متنوّعة حتى انتهت إلى حركات الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي خلّد بصماته على الخطّ العربي حتى يومنا هذا.

و يعد (قطبة بن المحرر) أوّل من استخرج من الخطّ العربي خطّ (الجليل والطومار والثلث والثلثين) ثمّ أتى بعده خالد بن أبي الهياج ومالك بن دينار في كتابة المصاحف ثم الضحّاك بن عجلان الذي كان أكتب الناس في عهد بني العباس.

وفي القرن الثالث الهجري ظهر الوزير ابن مقلة في بغداد كأفضل أهل زمانه في الخطّ، فترك آثارًا هندسيّة رائعة لم يسبق لها مثيل في أصول الحروف المفردة والضبط والوزن، وقدّر مقياس الحروف على حرف الألف والدائرة، فبلغ مبلغ الكمال في خط الثلث والنسخ. ثم أتى بعده ابن البواب علي بن هلال الذي وصل حدّ المعجزات في الخطّ وأتقن ثلاثة عشر خطًا وأجادها وحسنها إلى حدّ الكمال.

وانتقل الخطّ العربي مع الفتوحات باشتقاقاته الكثيرة إلى بلاد فارس وبخارى وسمرقند والهند والأناضول والأندلس وغيرها من الأقاليم، ومعه انتشرت اللغة العربية والكتابة بالحروف العربية واستخدموا الخطّ في إشادة أبنيتهم ومساجدهم وقصورهم وزخرفتها باالهندسة العربيّة واستعملوها في تذهيب المصاحف وتزيينها وكتابة عناوين السور بالخطّ الكوفي المورق وفروعه النباتيّة وألوانه الزاهية التي بلغت القمّة في الزخرفة والإبداع،

جزء من لوحة سيراميك ق 15 في سمرقند

فكان استخدام الخطوط والزخارف العربية في الأقطار أكسب كل إقليم من الأقاليم شخصيّة فنيّة مميزة ضمن إطار الشخصية الإسلاميّة العامّة، فظهر التنوّع في الطرازات الإسلامية منها: الطراز المغربي والأندلسي والمصري والعراقي والحجازي والهندي والإيراني والتركي إلخ.

وهذا التنوع يدلّ على تكامل الخطّ والزخرفة العربية وأصالتها الفنية وتنوع ابتكاراته وابداعاته، فتظهر فيها بوضوح ملامح الشخصية العربية .

ورغم أنّ الفنّ الإسلامي تأثر في بعض مظاهره بفنون الأمم الأخرى غير أنّ هذا التأثير بقي محدوداً بسبب الاضمحلال الفكري والحضاري لهذه البلدان، فبقي الخطّ العربي نقيًا يحمل خصوصيته وأصالته وطبيعته العربية.

فالخطّ العربي أينما ظهر بهر وأثار الإدهاش فكان كالغادة الحسناء في الحسن والجمال، وقد ذكر النويري في كتابه (نهاية الأرب) عن جمال الخطّ العربي وكماله فقال: (يستحق الخطّ العربي أن يوصف بالحس والجودة إذا اعتدلت أقسامه وطالت ألفه ولامه واستقامت سطوره وضاهى صعوده حدوره وتفتحت عيونه ولم تشتبه راؤه ونونه وتساوت أطنابه واستدارت أهدابه وصغرت نواجذه وانفتحت محاجره وقام لكتابته مقام النسبة والحلية وخيّل إليه أنّه يتحرك وهو ساكن).

فاطمه بور حاتمي / ايران

المراجع

1. قواعد الخطّ العربي، هاشم محمد البغدادي، بيروت، 1980.
2. الحروف العربية المستديرة، محمد الحداد، القاهرة
3. فنون الإسلام، حسن زكي محمد، تحقيق: حسين نصار 1948.
4. الآثار الإسلامية، حسن عبد الوهاب، القاهرة، 1955.
5. الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه، محمد عبد العزيز مرزوق، بغداد، 1965 .